

النزعة الصوفية في الخطاب الشعري عند سيد قطب

أ. حورية بكوش

جامعة - أدرار

ملخص المقال :

يعد الخطاب القطبي .نسبة إلى سيد قطب _ خطابا مثيرا للجدل بما حواه من معالم طريق . وعدّ توجهه الصوفي إحدى هذه المعالم التي برزت في ديوانه الشعري الوحيد .

تحاول هذه الورقة أن تقف على تجليات نزوعه الصوفي في بؤر توتره الشعري والشعوري وسكره الصوفي في الديوان من خلال المرأة التي تصنع أولى تجلياته الصوفية غزلا واهابه ثم من خلال ثنائية النور والظلام التي ألقت الضوء الساطع على صوفية الخطاب القطبي .

لتخلص الدراسة في الأخير إلى أن غزله الصوفي كان نتيجة حتمية لفشل غزله العذري كما هي سنة أغلب الشعراء المتصوفين .وأن صراع النور و الظلام هو صورة لصراع الخير و الشر الموت و الحياة ، العدل و الظلم ...وتجلي واضح لسلوك صوفي ومسلوك في مدارج الكمال.

La propension soufie dans le discours poétique de Sayid Qotb
L'amour divin dans E'Nour wa Dalam (L'illumination et l'obscurité)

Le discours Al qotbiy en référence à *Sayid Qotb* est l'objet de plusieurs polémiques. Sa pensée marquée par le soufisme a émergé dans sa poésie.

Sayid Qutb compte parmi les savants qui ont fondé leurs écritures sur le soufisme. Notre étude met l'accent sur la propension soufie dans sa poésie, à travers la femme, source d'inspiration et de préoccupations, via la dyade E'nour wa Dalam.

Nous avons essayé de démontrer que, comme tous les poètes soufis, le filage soufi de Sayid Qutb est la conséquence d'une déception, d'un échec. Et que le conflit entre l'illumination et l'obscurité constitue l'image du bien et du mal, la vie et la mort, la justice et l'injustice ... Une nette transfiguration d'un comportement soufi et un passage vers les pistes de la perfection.

مقدمة :

يعد الخطاب القطبي .نسبة إلى سيد قطب _ خطابا مثيرا للجدل بما حواه من معالم طريق رسمها فجعلت خطابه قاب قوسين أو أدنى من التشطي والرص بالألغام. وهو الذي أرهص لهذا الخطاب بخطاب شعري سبق ثوراته الأيديولوجية وانقلاباته المعرفية فكان ديوانه الوحيد . الذي يعتقد البعض انه براء منه . الشاطيء المجهول ديوانا يعكس توجهه الصوفي وحيرته الوجودية قبل أن تستبين له معالم طريقه، تحاول هذه الورقة أن تقف على تجليات نزوعه الصوفي في بؤر توتره الشعري والشعوري وسكره الصوفي في الديوان من خلال المرأة التي تصنع أولى تجلياته الصوفية غزلا واهابه ثم من خلال ثنائية النور والظلام التي ألقت الضوء الساطع على صوفية الخطاب القطبي .

التصوف المصطلح والاعتناق القطبي:

اختلاف التعريفات والرؤى حول مصطلح الصوفية أمر طبيعي ذلك أنه - أي التصوف - أمر قلبي ومن المقولات الوجدانية الشخصية، ولعل كل واحد يعتبر التصوف ذلك الشيء الذي يدركه ويشعر به ولا يمكن أن يعرفه تعريفا جامعا مانعا.

ومن هذه التعاريف :

قول الحريري : « التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنيء »¹.

وقول معروف الكرخي : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق »².

وكل التعاريف التي نجدها للتصوف في بطون الكتب تتمحور حول جملة من السلوكيات والعلاقات بين المتصوف وذاته وبينه وبين مجتمعه وفوق ذلك بينه وبين خالقه . فالتصوف رياضة روحية وأخلاق مستمدة من الشرع ، هدفها صفاء الباطن لإدراك الحقائق .

فالتصوف عموما هو فن طبيعته الوجدان ومنطقته العالم الداخلي ونسلم إذن انه عاطفة صادقة صافية لا يساورها ضعف أو يخالجها ارتياب . لذلك كان التصوف في حرم الشعر تفاعلا تفرضه طبيعة الشعر كفن وجداني وطبيعية التصوف كفن هو الآخر منطقته الداخل ودينه الصفاء .

والشاعر العربي المعاصر تدثر بالصوفية، ورأى فيها ملاذه فالواقع المر الذي يعيشه في حياته،

وإحساسه بالظلم والقهر والدونية وفقدان الحرية الإنسانية، كل هذا جعله يحيا مضطربا قلقا يتلذذ بغيوبة الإبداع الشعري. يدخل هذا العالم السحري يتألم ويتأمل، وهنا يتلبس الحالة الصوفية في المناجاة والمعاناة لتتحد لحظة لإبداع الشعرية بلحظة التأمل والإلهام الصوفي في نقطة الإشراق المعرفي.

وهنا يتدخل الحس الفلسفي حتى تختلط الأذواق الصوفية بالأنظار العقلية مستخدمين في التعبير عن ذلك مصطلحات فلسفية استمدوها من مصادر متعددة وهذا النوع من التصوف يطلق عليه النفثازاني التصوف الفلسفي¹ .

1- عبد الكريم بن هوزان القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف . تحقيق هاني الحاج ، المكتبة التوفيقية

ج م ع . دط . دت ص 385

2- المصدر نفسه ص 386

ذلك أن علاقة الشعر بالفلسفة والتصوف تحكمه قيم القلق والاضطراب والتوق الى المعرفة.

لقد عاش سيد قطب* حالة الاضطراب والقلق وحالة التوق إلى كشف الحجب وسلك طريق المجاهدة متغنيا بمفردات حقيقة الوجود، الحقل،، الزهرة الليلة القمراء.

ثم استهلكته غيبوبة الشعر، فنأى عن واقعه المحسوس ليعيش وينعم بصفاء الرؤيا الصوفية .

وهنا تحول هذا الشعر إلى نوع من السحر هدفه إدراك ما لا يدركه العقل على حد تعبير أدونيس²

قال سيد قطب :

لَقَدْ حَجَبَ الْعَقْلُ الَّذِي نَسْتَشِيرُهُ حَقَائِقَ جَلَّتْ عَنْ حَقَائِقِنَا الصُّغْرَى

هُنَا عَالَمُ الْأَرْوَاحِ فَلْنُخْلَعْ الْحِجَابَ فَنَنْعَمَ فِيهِ الْخُلْدَ وَالْحُبَّ وَالسَّحْرَا³

فالعقل قاصر عن اكتشاف الحقائق. وما بلغه من معرفة ليست إلا حقائق صغرى مقارنة بما هو محجوب

1- ينظر المرجع السابق ص ن

• _ هو سيد قطب ابراهيم حسن شاذلي ولد في قرية موشى بصعيد مصر عام 1906 م الموافق لعام 1324 هـ في أسرة محافظة ذات امتياز اجتماعي تخرج من دار العلوم سنة 1933 حاملا شهادة ليسانس في الآداب انضم الى حركة الاخوان في مصر سنة 1952 م اعدم من قبل السلطات المصرية سنة 1966 م بتهمة تدبير حادث المنشية ترك اثارا كثيرة في الفكر والنقد والأدب وتفسير القرآن الكريم وله ديوان شعري واحد يحمل كل نتاجه الشعري موسوم بالشاطيء ينظر : سيد قطب الاديب الناقد عبد الله عوض الخباص . صلاح عبد الفتاح الخالدي سيد قطب الشهيد الحي المجهول .

للاستزادة....

2- ينظر علي أحمد سعيد أدونيس : مقدمة للشعر العربي دار العودة بيروت ط2 1979 ص 126 .

3- سيد قطب : الديوان جمع وتحقيق وتوثيق وتقديم عبد الباقي محمد حسين . دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ط2 1992 ص 123.

ويعدّ كبرى الحقائق. ولا مسلك لبلوغ الحقيقة إلا بولوج عالم الروح والاستمتاع بإشراقات الوجد والحب والخلد والسحر .

ولقد رفض الغزالي قبل سيد قطب منطق العقل واعتمد على الحدس الصوفي للوصول إلى الحقيقة ، وتهذئة ذاته القلقة فأوصلته صوفيته إلى اليقين بعد شك وتمحيص وقلق وحيرة .

كان وجدان سيد قطب مسرحا للقلق والحيرة والشك والاعتراب فتلبس الصوفية وانطرح أمام بابه الكبير يردد قول بدر شاكر السياب :

مُنْطَرِحًا أَمَامَ بَابِكَ الْكَبِيرِ
أَصْرُخُ فِي الظَّلَامِ أَسْتَجِيرُ
يَا رَاعِيَ النَّمَالِ فِي الرَّمَالِ
وَسَامِعَ الْحَصَاةِ فِي قَرَارَةِ الْغَدِيرِ
أَوْدُ لَوْ أَنَا فِي حِمَاكَ¹

ودّ سيد قطب أن يغرق في حبه. فكان أول تجليات نزعته الصوفية التأملية الحب الإلهي أو الغزل الصوفي والإهابة برمز المرأة. ثم كانت ثنائية النور والظلام انعكاسا طبيعيا لما يمور في دخيلته من شك واصطراع بين قوى كثيرة متضادة .

1 - الحب الإلهي (لغزل الصوفي):

الحب أو المحبة مما يدور في كلام المتصوفة ويذل على أحوالهم هو فرح ، و خير ، و قوة و سبيل في عرف المتصوفة . قال عنه أبو زيد البسطامي : «المحبة استقلال الكثير من نفسك ، و استكثار القليل من حبيبك»² . ومما

1- بدر شاكر السياب : ديوانبدر شاكر السياب المجلد 1 دار العودة بيروت 2000 ص 15 .

2- عبد الكريم بن هوزان القشيري: الرسالة القشيرية في التصوف تحقيق هاني الحاج المكتبة التوفيقية ج م ع .

جاء في الرسالة القشيرية أيضا عن المحبة ، أنّ ابن عطاء سئل عن المحبة فقال :

«أغصان تغرس في القلب فتثمر على قدر العقول «ولعلها تثمر شعرا عند الشاعر المتدثر بصوفيته كلّما ونبضا .

والحب شرعة سماوية ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾². وقوله أيضا ﴿ يحبونهم كحب الله و الذين آمنوا أشد حبا لله ... ﴾³. فالشاعر الصوفي شرب من كأس محبته و ذاق نعيم القرب منه تعالى . ولكنه مضطرب أن يجري على أساليب البيان الشائعة ويعزف على القيثارة التي لجرسها وقع مطرب في الأسماع و النفوس.

ذلك أن كلام الغزل ألصق بالجملة الإنسانية وأقرب إلى الطباع و أخف إلى القلوب تستملحه وتستظرفه ويفك عنها شجن الدنا .

ولطالما عثرنا على قصائد غزلية ظاهرها غزل و هيام بالمرأة و لكن باطنها حب إلهي عرج إلى الجمال الإلهي على مطية المرأة الرمز . كما هو شأن شاعرنا سيد قطب، الذي أخفق في حبه وطوحت به رياح الشوق و الحنين فطالعنا بحبه الإلهي وبتوجهه إلى الله مصدر الجمال والجلال. محررا من قيود عاطفته الدنيوية.

« فما الحب الصوفي إلا حب عذري تطور تحت تأثير عوامل دينية وفلسفية. و كلاهما خضع لتأثير الدين و نصوصه بعد تأويل و كلاهما صدر عن العقيدة.... و كان حب المتصوفة سبيلا إلى الله عن طريق التأمل في الجمال

1- عبد الكريم بن هوزان ، مرجع سابق ص 425 .

2 _ القرآن الكريم: سورة المائدة من الآية 54

3_ سورة البقرة من الآية 165

الجسماني»¹ . فكل شاعر صوفي إلا وبدأ عذريا وانتهى متصوفا سواء أرخ لعذرية شعوره وشعره أم بقيت أنساقا مضمرة بداخله . يقول سيد قطب في قصيدته " عبادة جديدة " :

لَكَ يَا جَمَالَ عِبَادَتِي	لَكَ أَنْتَ وَحَدَّكَ يَا جَمَالَ .
تُعْصِي تَعَالِيمُ الطُّغَا	ة ، أَوِ الْهُدَاةِ عَلَى ضَلَالٍ .
وَيُخَالِفُ التَّشْرِيعُ جَهْرًا	أَوْ خَفَاءَ فِي احْتِيَالٍ .
وَتُجَانَّبُ الْأَدْيَانُ أَوْ	تُنْسَى وَ تُهَجَّرُ عَنْ مَلَالٍ .
وَأَرَاكَ وَحَدَّكَ يَا جَمَالَ	تَلْقَى الْخُضُوعَ وَ الْاحْتِفَالَ .
وَالْحُبَّ وَ الْإِيمَانَ مِنْ	كُلِّ الْأَنَامِ بِكُلِّ حَالٍ ² .

يفرد الشاعر عبادته للجمال الذي هو أول التجليات الإلهية :
الجمال والجلال والكمال .

فالجمال هو وحده الذي لا يعصى بل كل الخضوع و الانصياع له ، فقلوبنا جبلت على حب الجمال .

ثم يواصل مبرزاً عقيدته و توجهه الصوفي :

وَأَرَى الْأُلُوهَةَ فِيكَ تَوْ	حِي بِالْعِبَادَةِ فِي جَلَالٍ .
وَ مَا أَنْتَ إِلَّا مَظْهَرٌ	مِنْهَا تَوْشِيهِ الظَّلَالِ .
فَإِذَا عَبْدْتُكَ لَمْ أَكُنْ	يَا حُسْنُ مِنْ أَهْلِ الظَّلَالِ .
بَلْ كُنْتُ مَحْمُودَ الْعَقِيدِ	دَةٍ فِي الْحَقِيقَةِ وَ الْخَيَالِ .
أَعْنُو لِمَا تَعْنُو لَهُ	كُلُّ النُّفُوسِ بِلَا مِثَالٍ .
مُتَفَرِّقًا فِي الْكَوْنِ فِي	شَتَى الْمَرَائِي وَ الْخِلَالِ .
فَإِذَا تَرَكَّزَ هَا هُنَا	بَطْلُ التَّمَحُّلِ وَ الْجِدَالِ ¹ .

1_ محمد غنيمي هلال : ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، دار العودة بيروت 1980 ص 32

2_ سيد قطب : الديوان جمع وتقديم وتوثيق عبد الباقي محمد حسين الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع 1992

الجمال يوحى بالجلال، والجمال على - حد قول الشاعر - هو من مظاهر الألوهية ومن مسوغات العبودية لعبادته ليست ضلالا. وحقا « كل ما في الوجود هو تبديلات للجمال الإلهي ... و في كل المظاهر أثر جمال الله المطلق »² . وكأن سيد قطب أراد أن يقول أن كل شيء في الوجود جميل ينطق بوجوده وجماله وجلاله وعقيدة حب الجمال عقيدة محمودة وفي السياق ذاته يقول ابن الفارض :

يَا قَبْلَتِي فِي صَلَاتِي إِذَا وَقَفْتُ أُصَلِّي .

جَمَالُكُمْ نُصَبَ عَيْنِي وَإِلَيْهِ وَجَّهْتُ كُلِّي³ .

فالشاعر الصوفي كثيرا ما يجعل من المرأة رمزا وطريقا إلى كشف الحقيقة والتمتع بالجمال الأزلي

المطلق. وقد يلتبس علينا الأمر فنحسبه حيناً غزلاً، وحيناً نعدّه تصوّفاً وحبا إلهيا.

والشعراء الصوفيون « قد يعتمدون على التمثيل الحسي المأخوذ في الغالب عن العالم الخارجي كما يظهر أيضا اعتماد الصوفية على كثير من أشعار الشعراء التي قالوها في أغراض دنيوية أو حسية . فهم ينشدونها للتمثيل . ويلتمسون من خلالها معاني جديدة علوية ... »⁴ .

فليس جديدا . إذن . التمثيل الحسي في عرف المتصوفة كما نراه في هذه القصيدة :

لِعَيْنَيْكَ تَسْبِيحِي وَ هَمْسُ سَرَائِرِي

1_المصدر نفسه : ص ن

2_ خنائة بن هاشم . شعربة النص الصوفي قراءة في مضارب التأويل رسالة دكتوراه مخطوط جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان 2004 ص 121

3-ابن الفارض الديوان دار بيروت للطباعة والنشر، د ط 1979 ص 175.

4_ عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الشعر العربي مطبعة دار الحياة 1972 ص 304

وَ فِي صَمْتِهَا الْمُؤْجِي مُرَادُ خَوَاطِرِي .
 تُطِلُّ عَلَى الدُّنْيَا فُتُوقِظُ قَلْبَهَا
 وَ تَمْنَحُ هَذَا الْكَوْنَ إِيْمَانَ شَاعِرٍ .
 وَ تَسْكُبُ فِي أَلْحَانِهِ عُبُقْرِيَّةً
 مِنْ الْفَنِّ لَمْ تَخْطُرْ بِأَمَالِ سَاحِرٍ
 وَ تَجْلُو مِنَ الدُّنْيَا عَمِيقَ فُنُونِهَا
 وَ تَكْشِفُ فِي أَطْوَانِهَا كُلَّ خَاطِرٍ
 لَقَدْ شَفَّ هَذَا الْوَجْهَ حَتَّى كَانَتْهُ
 خَوَاطِرُ فَنَّانٍ نَدَى الْمَشَاعِرِ
 وَ قَدْ رَقَّ هَذَا الْجِسْمُ حَتَّى كَانَتْهُ
 هَوَاتِفَ حُلُمٍ نَاعِمَاتِ الْبِشَائِرِ
 وَقَدْ رَقَّ هَذَا الصَّوْتُ حَتَّى كَانَتْهُ
 أَغَارِيدُ لَحْنٍ فِي السَّمَوَاتِ عَابِرِ
 وَقَدْ خَفَّ هَذَا الْخَطُّ حَتَّى كَانَتْهُ
 مُرُورُ نَسِيمٍ بِالْأَزَاهِيرِ عَاطِرِ
 وَخِلْنَاكَ طَيْفًا هَامِسًا فِي ضَمَائِرِي
 وَإِنَّكَ طَيْفٌ هَامِسٌ لِلنَّوَاطِرِ¹
 افتنن الشاعر بالجمال الذي مد سحره. فإذا الدنيا غير الدنيا يوقظ قلبها
 هذا الحسن الفتان ويخلع فتنته على كل الموجودات فمن الجمال إلى الجلال تمر
 رحلة النور وتهمس بتقديس طاهر أجل من أن تفهمه العقول وحقا:
 وَمَعْنَى وَرَاءَ الْحُسْنِ فِيكَ شَهْدَتُهُ
 بِهِ دَقَّ عَنْ إِدْرَاكِ عَيْنٍ بِصِيرَتِي²

1_سيد قطب الديوان مصدر سابق ص 92

2_ابن الفارض مصدر سابق ص 53

لقد حاول سيد قطب أن يقربنا من وجدانه المشرق فاعتمد الصور الحسية

ليعمق

إحساسه الوجودي وحب الإنسان للإنسان صورة أدت الغرض .
ولا سيما المرأة التي تعبر عن آثار جمال الذات الإلهية . وما الطيف الهامس
للنواظر إلا حسن معار من جمالها كما قال بن الفارض.

فَكُلُّ مَلِيحٍ حُسْنُهُ مِنْ جَمَالِهَا

مُعَارٌ لَهُ بَلْ حُسْنُ كُلِّ مَلِيحَةٍ¹

أغرق سيد قطب في تصوير لحظات نشوته وفرحه بلقاء المحبوب - في هذه
القصيدة - لتصبح لحظات كونية أكبر من أن تحتويها تجربة حب إنسان
لإنسان. مما دفعنا إلى الجزم أن الحب الإلهي هو موضوع هذه القصيدة والتي
عن قصد - كما أعتقد - سماها صاحبها شبح. لتبقى القصيدة اخيلة تمور في
لجة روحه المحلقة.

أما في قصيدته عصمة الحب. فتأتي المعاني والألفاظ مشعة بنور الإشراق
الصوفي :

وَعَنَاءٌ عَنِ الْخُلُودِ غِرَامٌ

هُوَ رَمَزٌ وَ وَصَلَةٌ لِلْبَقَاءِ .

وَهُوَ يَغْلُو بِالرُّوحِ عَنْ خَطَلِ الْجِسِّ

م وَيُضْفِي عَلَيْهِ تَوْبَ الضِّيَاءِ .

هُوَ النُّورُ وَمَا الْخَطِيئَةُ إِلَّا

ظُلْمَةٌ أَوْ حَلِيفَةُ الظُّلَمَاءِ

وَهُوَ يَسْمُو عَنِ الزَّمَانِ وَمَا قَدْ

يَقْتَضِيهِ الزَّمَانُ مِنْ أَخْطَاءِ .

1_ ابن الفارض المصدر السابق ص 70

هُوَ خُلِدَ وَمَا الْخَطِيئَةُ إِلَّا

بَعْضُ وَحْيِ الْفَنَاءِ لِلْأَحْيَاءِ.¹

نستشعر هزة الجمال والحب التي أَلَقَتِ الشاعر في محراب الخشوع والإيمان وامتزجت روحه بالجمال المطلق فما أحس بالجسم وإذا الحب رمز الخلود وسر البقاء. هو حب فوق الخطيئة والظلمة. ومعبر للنور الدائم المتمثل في الذات الإلهية التي يتغنى الشاعر بحبها...

خطوة فخطوة... ويشركنا الشاعر في وجدانه و يفض جميع الأسرار وشأنه شأن كل صوفي يتأمل في الجمال به يتقرب إلى جمال الحق . ويطول تأمله حتى يعتريه ذلك الشعور الفياض الذي يستغرق فيه حتى يصل إلى حالة الوجد ويغيب عن وعيه الحسي. والوجد كما جاء في حدائق الحقائق للرازي : هو بروق تلمع، ثم تُحمد، ثم تبدو، ثم تُخفى، فما أحلاها، ولو بقيت على صاحبها طرفة عين وقيل :خطرة في القلب منه، خطرة البرق انبرى ثم اضمحل² ولعلّ القصيد تأريخ بل أثر للحظات الوجد الصوفي .

وفي القصيدة الآتية تدرجت نفسه المحبة من حب الأشكال إلى حب ما وراء الأشكال من الصور المجردة إلى عالم الأرواح فقال:

أَهِيَ النَّشْوَةُ أَمْ رَقْدَةُ جَمْرٍ

إِنِّي أَحْسَسْتُهَا تَذْكُو بِصَدْرِي.

وَبِرُوحِي لَهْفَةً تَبْعَنُهَا

هَذِهِ الْقُبْلَةُ مِنْ أَعْدَبِ نَعْرِ.

قُبْلَةٌ ! مَا هَذِهِ الْقُبْلَةُ إِذْ

تَنْقُلُ الدُّنْيَا إِلَى عَالَمِ سِحْرِ.

1_ سيد قطب - الديوان - ص 198

2_ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر شمس الدين الرازي ، حدائق الحقائق ، نح سعيد عبد الفتاح مكتبة الثقافة الدينية مصر 2006 ط 1 ص300.

وَتُحِيلُ الْجِسْمَ وَالرُّوحَ مَعًا
 شُعْلَةً طَائِفَةً لَمْ تَسْتَقِرْ .
 بَلْ نُحِيلُ الْجِسْمَ وَالرُّوحَ شَدَى
 مِنْ عَبِيرِ الْخُلْدِ أَوْ مَسَكَةُ طُهُرٍ¹ .

أي قبلة هذه ؟! التي شغلت فكره حتى بدا حائرا .
 أي قبلة النور أم قبلة الشفاه ؟! لا يتركنا سيد قطب في لجج من حيرتنا اذ ما
 يفتأ يجيب عن تساؤلنا في الأبيات التي تتوالى نترى تغدق بالمعاني الصوفية
 التي تعمق صلاته الروحية بالخالق .
 إنها _ أي القبلة _ التي تنتقل الدنيا إلى عالم السحر وتوحد الجسم والروح معا .
 وتزدحم الصور بألوان أحلام وتخيلات تتخللها الأنوار والشذى والسنا . ولكن
 الحب والانفعال يبقى مركز الرؤيا في القصيدة بكيفية مطلقة .

لَمْ أُجَسِّ الرُّوحَ مِنِّْي مُنْقَلًا
 بِهِمُومِ الْجِسْمِ إِذْ هَوَّمَ يَسْرِي
 لَمْ أُجَسِّ الْعُمَرَ إِلَّا خَفَقَةً
 فِي فُؤَادِ الدَّهْرِ قَدْ فَاضَتْ بِبَشْرِ .
 وَأَرَى الْمَاضِي أَضْحَى لَحْظَةً
 بَعْدَمَا قَدْ كَادَ أَنْ يَنْقُضَ ظَهْرِي .
 وَتَطَلَّعْتُ بِعَيْنِ الْمُنْتَشِي

لِجَمَالِ الْكَوْنِ فِي نَشْوَةِ سُكْرِ² .
 لقد شحن الشاعر أوتاره التي عزفت أنغام الغزل والحب الحسي . بأحاسيس
 مميزة . قفزت فوق الحس وفوق الواقع .

1_ سيد قطب . الديوان . ص 186 .

2_ المصدر السابق ص ن

« فاستحالت اللغة معه يناعيع من الرقة يغمر بها طيف حبيبة خارقة .فتسمو اللغة الحسية على أجنحة روحية إلى عالم يحررها من ماديتها الزائلة و يكسبها من الخصائص ما هو مطلقو أزلي »¹.

فالقبلة ليست ذات شكل حسي بل هي قبس من عالم الروح و النور أسكرته فتلذذ بالوصال وتطلع إلى روعة الجمال .

« والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجد . فإذا كوشف العبد بنعت الجمال . حصل السكر وطاب الروح وهام القلب .. » 1 .ولا مناص أن السيل الشعري في القصيدة عبر عن لحظات وجد طابت بها الروح فكانت القبلة بريد الهيام القلبي والوجد الصوفي في رمزية تتفكك على اعتاب قوله:

وتطلعت بعيني المنتشي لجمال الكون في نشوة سكر

وفي لحظة الصحو يتساءل الشاعر .

هِيَ الْقُبْلَةُ مِنْ تَغْرِ لِتَغْرِ ؟

أَمْ هِيَ الْخُطْوَةُ مِنْ وَحْيٍ لِفِكْرٍ ؟

أَمْ تَرَاهَا قُبْلَةَ النُّورِ الَّتِي

فَاضَ مِنْهَا النُّورُ فِي أَوَّلِ فَجْرِ .

حِينَمَا زَفَرَفَ وَ الْكَوْنُ دُجَى

رُوحُ رَبِّ الْكَوْنِ فِي لُجَّةِ غَمْرِ

فَتَجَلَّى النُّورُ فِي بَرٍّ وَبَحْرِ

وَتَرَأَى الْحُسْنَ فِي طَيْرٍ وَ زَهْرٍ .²

ذاق سيد قطب بل شرب من كأس محبته فأسكره و تجلى له النور في بر وبحر وتراءى الجمال في كل المخلوقات. وجوهر الحقيقة والمبتغى جاء به

1_ خنائة بن هاشم .مرجع سابق ص 145

2_ سيد قطب - الديوان - ص 186

الشاعر تصريحاً واضحاً في ذيل القصيدة .بعد أن ظل يترنح بين المعنى الحسي
و المعنى الروحي فإذا هو في الأخير يقول :

حِينَما رَفُفَ وَالْكُونُ دُجَى

رُوحُ رَبِّ الْكَوْنِ فِي لُجَّةِ غَمْرٍ¹.

سلك سيد قطب طريق العارفين فشاهد، فصار يفكر ويتواجد من خلال ما
تلتقطه العين وتقرأ الروح سيمياءه وفي هذا يقول صاحب ايقاظ الهمم « ... و
من الناس من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني فيه ولم يقف مع القشر بل
نفذ إلى شهود اللب وهو نور الملكوت وأسرار الجبروت .. »² .وفي هذا السياق
يقول الحلاج مبيناً ن معدن روح العارفين :

فَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ

تَرَى مَا لَا يَرَى لِلنَّاظِرِينَ³.

لذة الشاعر الكبرى في حبه الإلهي و لحظات سكره التي تتسيه مرارة الواقع
والحياة التي اغترب عنها وتمرد عليها ليكون حبه وتصوفه ملاذه وهو « إعراض
عن الدنيا وإطراح للجسد . ثم إطلاق للروح في سفرها الطويل الشاق حتى تبلغ
بغيتها ومرادها . فتري الله وتفنى فيه فناء مفارقاً . فالصوفي يحن للوصول إلى الله.
ورؤيته حتى إذا غمره النور انتشى . وإذا علم اعترته غبطة كبرى... فالمحبون
أحياء بأرواحهم خالدون... »⁴ . وهذا ما عبر عنه الشاعر حين قال :

1_ المصدر نفسه ص ن

2 _ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني : ايقاظ الهمم في شرح الحكم والفتوحات الالهية في شرح المباحث
الأصلية ج2 مطبعة الجمالية بحارة الروم مصر ط1913.2 ص 359

3_ المصدر نفسه ص ن .

4 _ ثريا عبد الفتاح ملحق . القيم الروحية في الشعر العربي دار الكتاب اللبناني د ت 3 ط ص 97 .

وَعَنَاءٌ عَنِ الْخُلُودِ غَرَامٌ

هُوَ رَمَزٌ وَ وَصْلَةٌ لِلْبَقَاءِ.¹

الحب الإلهي - إذن - معبر آمن إلى الخلود و الأبدية حيث لا إخفاق لذلك قيل أن الحب الصوفي قد ينشأ و يقوى و يورق حين يخفق الحب الحسي ولا تتحقق مقاصده من الوصال .

فسيد قطب أخفق في حبه الحسي. وظل مشدودا إلى وصال مستحيل فاتجه إلى الحب الصوفي حيث يصير للهجر طعاما جديدا لا يحصل إلا بعد تلقي ومضة من ومضات الحقيقة وأنه إغراء بمواصلة درب المجاهدة. فبدخل الشاعر الصوفي المناجاة طلبا للكشف والمعاناة وهذا ما يلحظ في قصيدته. ريحانتي الأولى -الحرمان- حيث يتغنى بغربته واغترابه وبحمل حبه معاني عميقة شوق واشتياق . « فشوق يسكن باللقاء و اشتياق لا يزول باللقاء »².

قد يسكن شوق الصوفي في لحظات مشاهداته ويظل اشتياقه الى النبع الأصل يلزمه يغذي تجربته الصوفية تلك التي يحولها الشاعر الصوفي إلى أسفار، تزيد اللغة مسافات توتر وتمنح النفوس سفرا الى ديار المحبوب. ولا بد أن نقف عند الشوق في عرف المتصوفة ثم المشاهدة .

أما الأول فمن تعاريفه قولهم : احتياج القلوب إلى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبة يكون الشوق، والشوق يسكن باللقاء والرؤية³ وهذا ما عبّر عنه الشاعر آنفا حين سكنت روحه بنور المحبوب فسكن الشوق فجرا .

أما المشاهدة فهي مقام إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب من الأدناس والأقذار، وخلوصها من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق من صفاء المعرفة وبرد اليقين

1 _ سيد قطب الديوان ص 198

2-ابن قيم الجوزية . مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج3، دار الفكر، 1991، ص 43

3_ ينظر عبد الكريم بن هوزان القشيري _ مرجع سابق ص 332.

¹ المشاهدة إذن نور دائم . لا بدّ من مجاهدة ومراقبة لبلوغه . والمحبة أولى الطريق للبقاء كما لمّح الشاعر في مقطوعته السابقة .
 دنيا الصوفي عذاب ولظى ، وانتظار للقاء المحبوب . ويؤرخ لانتظاره ،
 بفضح قماء العالم مقارنة بروحانية عالم المحبوب تلك الروحانية التي يذوق
 نشوتها في لحظات مشاهداته .

أَنَا لَا أُرِيدُكَ هَا هُنَا فِي عَالَمِي
 إِنِّي أُعِيدُكَ مِنْ لَظَى وَعَذَابٍ .
 لَكِنَّهَا الدُّكْرَى تَنْوُرُ بِخَاطِرِي
 مَجْنُونَةٌ حَمَقَاءُ ذَاتُ غِلَابٍ²

حيث يقول:

بَيْنِي وَبَيْنَكَ شِقَّةٌ لَا تَنْتَهِي
 أَبَدًا أَقَارِبُ حَوْلَهَا وَ أَبَاعِدُ .
 هِيَ شِقَّةُ النَّفْسِ الْخَرَابِ وَإِنَّهَا
 لَمَجَاهِلٌ لَمْ تُكْتَشَفْ وَ فِدَافِدُ³

فالشاعر لا يزال سالكا طريق المجاهدة. مادام يبغي المشاهدة ذلك أنه من زين ظاهره بالمجاهدة زين الله باطنه بأنوار المجاهدة⁴ متدرجا بين مقامات التزكية الروحية تفصله عن الحقيقة الكبرى شقة النفس الخراب والحبس التي عنت عن الكشف، وكأن الشاعر في هذه القصيدة يبكي زمانا وذكريات انقضت وأطلالا درست. يقف عندها متحسرا مستحضرا ذاتا تخيلية تقاسمه احساسه.

1_ ينظر شمس الدين الرازي ، مرجع سابق ص 316 .

2- لديوان ص 89

3- لمصدر نفسه ص ن

4- ينظر شمس الدين الرازي ، مرجع سابق ص 36 .

« والشاعر الصوفي حين يبكي أطلال الحبيبة. فإنه لا يفعل ذلك من منطق مرارة الفراق ولا يطوي ذكرياتها لتبقى على رفوف الذاكرة لكنه يصنع الذكرى إطارا للحلم بأمل اللقاء المرتقب فهو يتودد إلى حبيبته ويرجوه ألا ييخل بوصول يدخل في مجال الذكرى. إنه تعبير عن الوصال الأول قبل أن يحدث الانفصال ومن تم الغربة والتشتت خيوط العودة »¹.

في القصيدة حرمان وغربة و تشتت بل أمل بالعودة. ويصور الشاعر الفروق بين العالمين

عالم الروح واللقاء الأكبر الموسوم بالجنة و عالم الحس المادي الذي ليس إلا جهنم . ولا يريد لعالم الروح و الحقيقة أن يتنقل و يمتد بعالم العذاب واللظى . إنه حين يصف معاناته فإنه في الحقيقة يصف عذوبة العذاب . وعز الذل والإنكسار أمام المحبوب الأعظم، انها سنة الصوفي الذي اشتاق وذاق احساس عذوبة العذاب الموصل الى اطفاء الشوق لحظة الوصال . ويصف سيد قطب حالات الكشف الصوفي والذهول الكامل من النفس والإبحار في المطلق.

رُبَّ إِحْسَاسٍ أَلِيمٍ شَفَنِي

لَمْ أَصَوِّرْهُ بِلَفْظٍ فَاضْطَرَمَّ .

أَلَمْ الْإِحْسَاسَ إِحْسَاسٌ دَفِينٌ

وَشُعُورٌ فِي فُؤَادٍ يَشْتَجِرُ .

لَمْ يَجِدْ لَفْظًا فَأَدَّاهُ الْأَنِينُ

وَدُمُوعٌ سَاكِبَاتٌ تَنْهَمِرُ .

أَثَرِي أَلَمْ لِلْقَلْبِ الْكَلِيمِ

1 -حنائة بن هاشم الرؤيا و التشكيل في الشعر الصوفي رسالة ماجستير

مخطوط بكلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة تلمسان 1991 ص 35

مِنْ رَجَاءٍ كَانَ يَزْهُو فَخَبَا؟
 وَ انطَوَى يَعْمُرُهُ يَأْسٌ عَقِيمٌ
 يَتْرُكُ الْقَلْبَ قَفَارًا مُجْدِبًا .
 أَتَرَى أَوْحَشَ مِنْ دِيرٍ كَنِيْبٍ
 فِي فَلَاةٍ لَا يُدَانِيهَا الْبَشَرُ .
 وَ تَكَادُ الرِّيحُ تَحْمِيهِ الْهُبُوبُ
 دَقَّ نَافُوسٌ بِهِ عِنْدَ السَّحَرِ
 ذَاكَ قَلْبِي بَعْدَ فُقْدَانِ الْأَمَلِ
 مُوحِشٌ يَطْرُقُهُ صَوْتُ سَحِيقٍ
 تَبَعْتُ الذِّكْرَى صَدَاهُ إِذْ تُطَلُّ
 مَشْجِيًّا يُوْغِلُ فِي الصَّمْتِ الْعَمِيقِ.¹

يعاني الشاعر حالة اتساع رؤيا و ضيق عبارة . فما يمور بدخيلته أوسع
 من أن يقيده لفظ فهذه « اللطائف المخبوءة في عالم الذات تصير عذابا حينما لا
 تفي الدلالة اللغوية بمعناها الغامض الذي يمور في أعماق الذات و لا نجاة
 من هذا الغرق إلا باللفظ ، لأن اللغة هي تحقيق لوجود الذات . »²
 فأحاسيسه تضطرم إنه يعاني الوحدة والألم حتى صار قلبه قفرا خاويا بعد
 أن جانبه الأمل.

وأوغل الشاعر في متاهات نفسه وقلبه وتفرس فيه . فانعكف يمارس
 الاستبطان يتعرف على نفسه بنفسه محاولا امتطاء صهوة اللغة فقد يستطيع
 اللفظ القاء القبض على الذات، وصار الشاعر موغلا في داخله يحص قيم

1 _ سيد قطب الديوان ص 154 . 155

2 _ أحمد بوزيان: المنحى الصوفي في الشعر العربي المعاصر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير
 جامعة وهران مخطوط 1997 ص 283 .

القلب والوجدان والروح. وفي غمرة انفراده ووحدته يعبر عن تهيبه من المجهول الآتي وحتى تتصله من الماضي:

مَا الَّذِي كَانَ وَ مَا الَّذِي سَيَكُونُ ؟

لَسْتُ أَدْرِي مَا جَوَابِي لَا جَوَابَ .

لَسْتُ أَدْرِي خَبِيئَاتُ السِّنِينَ

إِنْ فِرَاقًا أَوْ يَكُنْ بَعْدُ اقْتِرَابَ .

إِيهَ يَا مِلَّءَ فُؤَادِي وَ مُنَاهُ

إِيهَ يَا رَمَزَ الْأَمَانِي وَ الْأَمَلِ.

يَا نَسِيمًا ضَمَّ أَنْفَاسَ الْحَيَاةِ

نَفْحَةً تُهْدِي إِلَى مَيِّتٍ أَجَلٌ¹.

في هذه الأثناء تظهر المرأة الرمز، التي تملأ الفؤاد و تعيد الأمل و تجبر الكسر. وإذ الحياة كلها نسمة منها . وظهورها في حياته بعث للميت بل نفحات أهدته - أي الميت- أجلاً. كأن المجهول الذي كان يتخبط فيه الشاعر تقترب طلاسمة من الفك بحلول المرأة .

والقصيدة كلها كلمات مشعة مشبعة بالمعاني الروحية : (أنفاس الحياة، نفحة السحر، النسمة ...).

والنسمة عند سيد قطب نسمة عند ابن الفارض لذي يقول :

و لَيْلِي فِيهَا كُلُّ سِحْرٍ إِذَا

سَرَى لِي مِنْهَا فِيهِ تَمَرٌ نُسَيْمَةٌ².

وكلاهما (النسمة ،النسيمة) من الحسن مأخوذ .

نسمة تهدي إلى الميت أجلاً جديدا .

ونسيمته تعيد للمزكوم شمه .

1 _ الديوان ص 155

2 _ ابن الفارض الديوان ص 81

وَلَوْ عَبَّتْ فِي الشَّرْقِ أَنْفَاسُ طَيْبِهَا

وَفِي الْغَرْبِ مَرْكُومٌ لَعَادَ لَهُ الشَّمُّ.¹

هذا السحر مرده إلى شهود جمال الجلال . فتاه النمل و انسلخ عن زمانه و مكانه.

ما زال الجمال كالسحر يفعل فعله مع شاعرنا ..

أَنَا إِذَا أَلْقَاكَ عَفْوًا لَا أَحْسُ

فِيكَ جِسْمًا كَبَقِيَّاتِ الْجُسُومِ .

إِنَّمَا أَلْقَاكَ طَيْفًا لَا يُحْسُ

طَائِفًا يَهْفُو كَمَا يَهْفُو النَّسِيمُ .

فِي خَيَالِي أَنْتِ أَنْقَى وَ أَرْقُ

أَنْتِ رُوحٌ فِيهِ أَوْ طَيْفٌ مَلَكٌ.²

بلقاءها ينسلخ الشاعر عن المكان، فإذا الذي كنا نحسبه حبيبا يغدو طيفا، وروحا أنقى، وأرق وأطهر. إنها لحظة اكتشاف الحقيقة. واللحظة التي أرهصت لها " لا أدريه " الشاعر وحيرته. تحرر منها حين عطل حواسه فلم يعد الجسم جسما ولا المكان مكانا.

الحب الروحي يرقى ويتألق كلما ابتعد عن ليل الحواس وكأنها - هذه الحواس - الشقة الخراب التي تفصلنا عن الحقيقة وعن منجزات الروح.

على منوال الشعراء المتصوفين نسج سيد قطب قصائده و نفث هذا المصدور . فكان الحب الإلهي قبلته وتجلت المحبة التي هي « أخذ الرب بقلب العبد بحيث لا يلتفت إلى غيره. أو أخذ جمال المحبوب لمحبة القلب حتى لا

1_ المصدر نفسه ص 141

2_ سيد قطب الديوان ص 155

يجد مساعداً للالتفات لسوى المحبوب...»¹. يقول سيد قطب في قصيدته "الحياة الغالية":

الْحُبُّ قَاضٍ عَلَى الْحَيَاةِ بِخِصْبِهِ
وَأَجَدَّ عُمرًا بِكُلِّ مَحْرَبٍ
وَأَزَّاحَ أَسْتَارَ الدُّجَى فَتَكشَفَتْ

ظُلُمَاتِهِ عَنْ كُلِّ رَآهِ مُعْجَبٍ.²

كأن الحب في عرف شاعرنا شرعة سماوية ومطر يزخ فيحيي الموات ويعمر ما كان يبابا وإذا الخيال مطية الشاعر لتجلية هذه الرقائق في قالب شعري صوفي .

والخيال كما رأى الراجعي « هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليكشف به فهو يرفع الطبيعة درجة إنسانية ويرفع الإنسانية درجة سماوية »³.

لقد استمدت قصيدة "الحياة الغالية" كيانها من عناصر ورموز كالمرأة والجبل والليل. ونمت في الأعماق فانتشى الشاعر ونما مع الناميات ولبي نداء القلب المحب . وتدرج سيد قطب من حب الإنسان للإنسان وإيثاره للتفرد إلى عاطفة ألقى وأرق عاطفة تومض خاطفة فتستلها القصيدة وترميها زخات فنية . لقد ومضت هذه البرهات الخاطفة كثيرا في ديوان سيد قطب وأنارت الظلمة القابعة في داخله وأحيانا عز الخطاب . و جز الشاعر عن التعبير عن لحظات الوجد التي تخالجه وفرت الألفاظ حين اتسعت الرؤيا وهذا ديدن من يبحر في يم المجهول.

1 _ ابن عطاء السكندري - مصدر سابق - ص 341

2 _ سيد قطب _ الديوان _ ص 194

3 _ مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم سلسلة الأنيس، دار موقف للنشر، ج3، دط، 1990، ص 319

في هذا المجهول وفي طريق المجاهدة نحو نور المعرفة اضطرت قيم النور والظلام في داخل الشاعر فكانت ثنائية التجليات ثنائية النور والظلام التي وشت القصيدة بتوترها فغذت شعريتها بتوتر مماثل :

2 - ثنائية النور والظلام :

النور سلام الروح، والظلام قلق وخراب .

الفرح / الحزن، الراحة / الألم، الحياة / الموت، القفر / الخصب، اليأس / الألم، المجهول / المعروف. كلها قوى تتصارع فالنور يحاول إسقاط مفعول الظلام، والظلام يرنو إلى البقاء وحينها يعيش الشاعر حالة حيرة وجودية يرفعه النور ويسمو به تارة ليشرق وجدانه، وتستغل به الظلمة تارة أخرى فتطمسه . فالنور معادل موضوعي للإشراق والأمل والعرفان وهكذا بقي مفهوم النور والظلام علامة في الفكر الصوفي على حدسية المعرفة أو تأبيها، عن طريق الذوق العرفاني¹

ويستغل المتصوفة هذه الثنائية في التعبير عن مواجدهم حالة التجلي أو الكشف حيث يعجز العقل - حالة الإدراك - عن إستكناه الوجود الماورائي . فالمعارف على حد قول أبي حامد الغزالي :أنوار ولا يسعى المؤمنون على لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم².

بدون نور لا تتم المعرفة ، سواء النور الباطني الذي يكشف الحجب أو النور الظاهري الذي يجلى المحسوسات الموجودة .

يعبر سيد قطب عن النور الذي هو عرفان القلوب .

هُوَ نُورٌ وَ مَا الْحَاطِيَةُ إِلَّا

ظُلْمَةٌ أَوْ حَلِيقَةُ الظُّلَمَاءِ³.

1- ينظر أحمد بوزيان _ مرجع سابق _ ص 209 .

2_ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين تحقيق سيد عمران ج3 دار الحديث القاهرة دط 2004 ص 29 .

3 _ سيد قطب . الديوان . ص 198 .

وإذا عدت الخطيئة من صنيع الجوارح أو الحس فعالم الحس هو عالم الوجود المظلم .

وعالم الباطن هو النور ...

لذلك يستعمل المتصوفة النور ومصادره و مشتقاته كرمز للعرفانية، أو للذات الإلهية .

يقول الشاعر :

إِنْ لَمْ أُحِبَّكَ لِلْسَّنَا وَ النَّوْرِ

وَبِحُسْنِ وَجْهِ فِي الْحَيَاةِ نَضِيرِ .

وَلَسِحْرِ رُوحِكَ حِينَ يَخْتَلِسُ النَّهْيَ

مَنْى فَأَتَّبِعُهُ إِنْ بَاعَ سَحِيرِ .

إِنْ لَمْ أُحِبَّكَ حُبَّ مَفْتُونٍ وَلَا

حُبَّ الْأَسِيرِ، إِذَنْ فَحُبُّ شُكُورٍ¹.

هذا النور والضياء رمز الله الذي ألقاه في كل ذرة في هذا الكون فعمر الفجاج والشعاب والقلوب. لكنه نور يتعالى عن الرؤية والسمع، لكنه يثبت بالإدراك القلبي اللائق بالله تعالى، هذا الجليل الذي ألقى من نوره في قلوب عباده المقربين.

حُبُّ الَّذِي أَشْرَقَتْ فِي وَجْدَانِهِ

فَجَلَوَتْ كُلُّ مُحَبِّبٍ مَسْتُوْرٍ²

تتكاثف الحجب حتى يدركها النور فتتجلي ويشرق الوجدان.

« إن الحقيقة إذن تتجلى في الباطن. وما النور إلا رمز لهذه الحقيقة . ومهما كان صفاء الظاهر فليس بمثل الحقيقة بأي وجه من الوجوه كونه قشورا زائلة.»³

1_ المصدر نفسه ص 196 .

2 _ المصدر نفسه ص ن .

3- أحمد بوزيان مرجع سابق ص 211 .

لقد أشرق الوجدان بالحقيقة و المعرفة التي شغلت حيز الحجب و المستور...

حِينَمَا رَفُرَفَ وَالْكَوْنُ دُجَّى

رُوحُ رَبِّ الْكَوْنِ فِي لُجَّةِ عَمْرِ .

فَتَجَلَّى النُّورُ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ

وَتَرَأَى الْحُسْنَ فِي طَيْرٍ وَزَهْرٍ

الكون فيض من النور الرياني مصداقا لقوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلَاكِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾¹

لقد عبر سيد قطب المفسر عن هذا النور فقال :

(فيض النور الوضيء . فيغير الكون كله وإذا هو بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود . تتصل فيه السماوات والأرض والأحياء والجمادات والبعيد و القريب ويلتقي فيه الشعاب والدروب والطوايا والظواهر والحواس والقلوب)². هذا هو النور الذي يتغشى وجدان الصوفي فيشاهد ويعرف. ففي قصيدته الموسومة ب في السماء

تتسع الهوة بين الظلمة والنور ليقتنبس الشاعر قبسا من النور وهو في قصيدته يجلي نور الايمان الذي ملأ نفسه وقد قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾³

1_ سورة النور الآية 35 .

2 _ سيد قطب في ظلال القرآن دار الشروق القاهرة . ط12 (1406 هـ 1986) ج 18 ص 2519 .

3_ سورة فصلت الآية 53 .

ويتجلى نور الايمان في قصيدته اذ يقول :

أَيَقُظَّتِ أَنْبَلُ مَا يُجِنُّ ضَمِيرِي

وَبَعَثَتْ جَوْهَرُ عُنْصُرِي الْمَطْمُورِ

فَإِذَا أَنَا الرُّوحُ الَّتِي تَسْمُو بِهَا

دُنْيَا الْحَيَاةِ لِأَوْجِهَا الْمُنْظُورِ

وَ إِذَا أَنَا الثُّورُ الَّذِي تَجْلُو بِهِ

تِلْكَ الْحَيَاةُ غَيَاهِبَ الدِّيُجُورِ .

وَإِذَا أَنَا الشَّوْقُ الَّذِي يَحْدُو بِهَا

فَتَعْدُ بَيْنَ مَسَالِكِ وَصُخُورِ .

وَإِذَا أَنَا الشَّعْرُ الَّذِي تَشْدُو بِهِ

فِي نَشْوَةٍ وَ تَجِيْشٍ بِالتَّعْيِيرِ .

وَإِذَا أَنَا الْخَيْرُ الْمُحَضُّ وَالْهَدَى

وَالْحُبُّ وَالنَّجْوَى خِلَالَ ضَمِيرٍ¹

باطن الشاعر خير نوراني يشع على ما حوله، وإن هجع أحيانا وركبه

ظلام الظاهر فإنه ما إن يستيقظ حتى يقوى يعضده الحب والهدى والنجوى في

توليفة لطيفة تفضح بقع الظلمة وتطاردها.

فَبَائِيٍّ مُعْجَزَةٍ كَشَفَتْ ضَمَائِرِي

وَجَلَوَتْ كُلُّ مُحَبَّبٍ مَسْتُورِ .

وَعَدَوَتْ فِي فَضَائِلِي وَرَوَيْتَهَا

حَتَّى أَطَلَّتْ بِالْجَنَى الْمَذْخُورِ .

وَجَعَلَتْ مِنْ زَادِ الْخُلُودِ مَطَامِحِي

وَجَعَلَتْ أَشْوَاقِي صَلَاةً طَهُورِ .

1- الديوان ص 93 .

بِالْحُبِّ وَالْحُسْنِ الْوَدِيعِ وَ نَظَرَةٍ
 بَيَضَاءَ صَافِيَةٍ تُرِيحُ شُعُورِي .
 وَتُحِيلُ أَشْوَاقِي رِضَاءَ مُخَلِّدٍ
 رَاضٍ بِخُلْدٍ لَمْ يُشَبَّ بِقُصُورٍ .
 وَتُحِيلُنِي رُوحًا تَرِفُّ عَلَى الْوَرَى
 كَالْعَطْفِ . أَوْ كَالْحَبِّ . أَوْ كَالنُّورِ .
 فَإِلَيْكَ تَسْبِيحِي وَهَمْسُ سِرَائِرِي
 وَإِلَيْكَ غَايَةُ غِبْطَتِي وَسُرُورِي ¹.

شهد الشاعر قمة نشوته الروحية، بعدما ارتشف شربة من نهر الحقيقة الكبرى. وتتضاءل الظلمة في القصيدة بل تعدم والصراع يحسم لصالح الروح. وتخليني روحا ترف على الورى ...
 يوشى قلبه الباطن بكل القيم الخيرة التي اكتنزها بفضل توجهه نحو الله. ولم تكن «رؤية البصر هي وسيلة الكشف وإنما هناك الحدة الباطنية التي يمكنها النفاذ إلى جوهر الأشياء ...» ².
 والقصيدة حبلى بمعاني النور (الخير، الحب، فضائي، الجنى، صلاة طهور الحسن، الغبطة والسرور ...).
 وتنبئنا القصيدة بطور من أطوار صراعه وتأبى الكشف بسبب جدار الظلمة، ومتى اكتسحت الظلمة الباطن تراجع النور وتتضاءل .
 وَ إِذَا أَنَا النُّورُ الَّذِي تَجَلُّو بِهِ
 تِلْكَ الْحَيَاةُ غَيَا هِبَ الدَّيْجُورِ .
 وَ إِذَا أَنَا الشَّوْقُ الَّذِي يَحْدُو بِهِ
 فَتَعْدُ بَيْنَ مَسَالِكِ وَصُخُورِ .

1- الديوان ص 93 .

2 - أحمد بوزيان مرجع سابق، ص 213 .

النور نبع صاف يستمد منه الصوفي رؤاه للانجذاب نحو المطلق، نحو الذات الإلهية. وهذا النور ند للظلمة. لكن « ربما ودت إليك الظلمة عليك. ليعرفك قدر ما من به عليك ومن لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرف بوجود فقدانها... وربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت. فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار»¹. كما يقول صاحب الحكم العطائية.

وهذه النفس المحشوة بالآثار نفس خراب كما عبر عنها سيد قطب سابقاً. وارتداء الشاعر ومعانقته لعالم الروح تغيب لعالم الوجود الواقعي الحسي وبحث حثيث عن عالم الرؤى ومدينة النور حيث الأسرار والمعارف . يقول سيد قطب في قصيدته بسمه بعد عبوس أو حياة بعد موت.

بَسْمَةٌ ! أَمْ تِلْكَ أَنْفَاسُ الْحَيَاةِ

وَلِقَاءُ ذَاكَ أَمْ رَجْعُ الْعُمُرِ .

نَفْحَةٌ تَنْفُثُهَا تِلْكَ الشِّفَاءُ

تَبَعْتُ الْمَيِّتَ وَتُحْيِي مَا ائْتَرُ .

بَسْمَةٌ كَاللَّحْنِ مِنْ قِيَارَةِ

رَائِقِ الْمَعْنَى رَقِيقِ النِّعَمَاتِ.

أَوْ شَذَى يَأْرُجُ مِنْ نَوَّارَةِ

فِي غُصُونِ الْوَرْدِ زَاكِي النَّفَحَاتِ².

ثم يقول : نَظَرَ الدَّهْرُ إِلَيْهَا فَأَبْتَسَمَ

وَسَرَتْ فِي الْفَقْرِ فَأَخْضَلَ الْجَدِيبُ .

سَرَيَانَ الْبُرْءِ هَوْنًا فِي السَّقَمِ

وَ دَبِيبَ الرُّوحِ فِي الْمَيِّتِ السَّلِيبِ.¹

1 - ابن عجيبة مرجع سابق ص 467 .

2 - سيد قطب ، الديوان ص 105 .

ويقول ضاربا صفحا عن الظلمة مجليا النور من داخله بقوى الحنان والإخلاص والسمو .

هَتَفَتْ رُوحِي وَ حَيَّاهُ فُؤَادِي

فِي هُدُوءٍ شَامِلٍ ضَافٍ حُنُونٍ .

وَتَرَوَدْتُ مِنَ الْحُبِّ بِيْزَادٍ

وَمِنْ الْإِخْلَاصِ تُبْدِيهِ الْعُيُونُ .

إِنَّ عَيْنَيْهِ إِذَا تَزَنُّوا إِلَيَّ

تَسْكُبُ الرُّوحَ بِقَلْبِي وَ الرَّجَاءُ .

وَهُوَ إِذْ يَحْنُو بِعَطْفِيهِ عَلَيَّ

يَعْمُرُ النَّفْسَ بِفَيْضٍ مِنْ رِضَاءٍ .

إِنَّ فِي عَيْنَيْهِ مَعْنَى لِلْسُّمُو

فَوْقَ مَا يُدْرِكُ هَذَا الْبَشَرُ .

وَبِهَا آيَاتُ عَطْفٍ وَحُنُونٍ

لَسْتُ أَدْرِيهَا وَ لَكِنْ أَشْعُرُ².

بسمه النور هذه نقلت الشاعر من عالم الحس والأسى إلى عالم الروح المشرق وراحت تحدث سحرها وتصف مدينة النور. وهي مضاءة بقناديل (الأمل، الجمال الهدوء، الحن، والإخلاص، الروح والرضا..).

وهي - لا مناص - مضيئة فقط في باطنه دون أن يدرك كنهها. كما عبر عن ذلك، فهي عصية على الفهم ولكنها تشمل الشعور. وهذا هو المراد. وفي قصائد أخرى نجد مدائن الظلمة تمد حلكتها. وتنمي إلينا نبأ قلق الشاعر واضطرابه وبحته عن المفقود والمجهول. وتبدأ رحلة البحث عن المفقود بالتجرد

1-المصدر نفسه ص ن .

2 - المصدر نفسه ص 106 .

من المادة فإنسانية الإنسان الحق تكمن في جوهره أي باطنه المنير والظاهر ليس إلا قشورا يخالها الظالميون عالم الحقيقة.

فَهَمُّوا الْعَيْشَ طَعَامًا وَ شَرَابًا وَرَوَاحًا حَيْثُ شَاءُوا وَغَدُوا.
أَنْفُسٌ كَالْكَهْفِ مَا زَالَتْ خَرَابًا مِنْ شُعُورٍ يُلْهِمُ النَّفْسَ السُّمُورَ¹.
هذه الظلمة التي تنصدر الحديث هي كما يبدو ظلمة خارجية لم يتلبسها

الشاعر لكن

إحاطتها به جعلته يضيق ذرعاو يختنق . فالظلمة رآه فيما حوله . في أناس يتشبثون بالماديات و يتخلون عن حقول النور الممثلة في الإخلاص و الوفاء و الطهارة و كل المعاني النيرة التي يحفل بها وجدانه .

فَإِذَا حَدَّثْتَ عَنْ طَهْرٍ بَدِيعٍ وَشُعُورٍ يَغْمُرُ النَّفْسَ بَرَاءً .
أَدْرَكَوه سَافِلَ الشَّانِ وَضِيعٍ وَهُوَ أَسْمَى مَا اسْتَطَاعَتْهُ السَّمَاءُ .
حَقَرُوا الْعِفَّةَ وَ الْحِسَّ الْبَرَاءَ حَقَرُوا الرُّوحَ وَ هَامُوا بِالْجُسُومِ .
حَقَرُوا الْإِخْلَاصَ مَحْضًا وَالْوَفَاءَ وَرَأَوْا فِي النَّفْسِ مُحْيَاها الدِّمِيمَ²
وباعتبار الإنسان معيار أول، وركيزة أولى، أو قيمة مطلقة في الحياة ثار الشاعر على تخلخل هذه الركيزة وافتقارها واقفراها، فقد نشرت العبوس في وجه الكون.

حين نذكر الظلام و الظلمة نتجه رأسا إلى الليل ونربطه بالمسميين حسيا . فالليل حقل الظلمة الواسع فقد يرتبط بالحرمان واللاجدوى وتتجاذبه ثنائية الخير والشر والواقع والمثال .

مِنْ خِلَالِ الظُّلَمَاءِ فِي بَهْمَةِ اللَّيْلِ
تَمَشَّتْ كَالْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ .

تُوقِظُ الْجِسْمَ وَالْغَرِيزَةَ بِالْهَمْسِ

1_ سيد قطب ، الديوان ص 43 .

2 - المصدر نفسه ص ن .

وَتَطْغَى عَلَى الْحَجَا وَالذِّكَاءِ .

وَهِيَ مِنْ خَشْيَةِ الضَّمِيرِ تَوَارَى

فِي زَوَايَا المِئُولِ وَالْأَهْوَاءِ .

فَإِذَا شَعَّ مِنْ سَنَاهُ شُعَاعٌ

أَرْجَفَتْ مِنْهُ وَأَنْزَوَتْ فِي التَّوَاءِ .

وَإِذَا خَيَّمَ الظَّلَامُ تَرَاعَتْ

فِي احْتِرَاسٍ مِنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ ¹

تعكس القصيدة صراع الخير والشر ويرتبط هنا الليل بالخطيئة والسنا هو

حشرة الضمير

وتعكس الأبيات الخمس الأولى احتدام الصراع بين قوى النور الممثلة - كما

ذكرت - في الحجا والذكاء والضمير . أما قوى الظلمة فتمثلت في الجسم

والغريزة .

لَحْظَةً تِلْكَ، ثُمَّ خَيَّمَ صَمْتُ

وِظْلَامٍ فَمَا تَرَى مِنْ ضِيَاءٍ.

فَمَضَتْ تَضْرِمُ الْغَرِيزَةَ نَارًا

وَتُثِيرُ الشُّوَاطِلَ بَيْنَ الدَّمَاءِ.

الْبِدَارِ الْبِدَارِ أَيُّهَا الْجِسَدُ

مُ. شِفَاءٌ مِنَ الطَّوَى وَ الظَّمَاءِ.

وَتَوَارَى الْإِنْسَانُ حِينَ تَبَدَّى

حَيَوَانٌ ذُو شَرَّةٍ نَكَرَاءِ.

وَإِذَا بِالْخَطِيئَةِ السَّوْءِ نَشَوَى

بِإِنْتِصَارٍ نَالَتْهُ فِي الظُّلْمَاءِ ²

1 - سيد قطب ، الديوان ص 134 .

2 _ المصدر نفسه ص ن .

لفظ الإنسان المذكور في القصيدة قصد به جانب النور أو عالم الروح النقي. في حين دل لفظ حيوان على الظلمة والخطيئة. النور والظلام هنا تعبير عن الإنسان ونوازعه و كذا معاناته عند نزال الخير والشر فيه . وفي قصيدة " مفرق الطرق " يتصارع النور والظلام وعبثا يحاول النور رد الظلام عن ظلمته .

أَنْتِ أَوْغَلْتَ فِي الظَّلَامِ طَوِيلًا
فَمَتَى يَا رَفِيقُ تَبْغِي الْفُؤْلًا .
شَدَّ مَا آدَنَا التَّحْبُطُ فِي اللَّيْلِ
وَحَفْنَا ظَلَامَهُ الْمَدْحُولًا .
وَرَأَيْنَا الْأَوْهَامَ تَبْدُو شُخُوصًا
وَرَأَيْنَا الشُّخُوصَ تَبْدُو هَيُولَى .
وَحَبَرْنَا فَلَمْ يَفِدْنَا اخْتِبَارٌ
وَسَخَرْنَا مِمَّا حَبَرْنَا طَوِيلًا .
يَا رَفِيقِي إِذَا قَدَرْتَ فَأَوْبُ

إِنَّ هَذَا الظَّلَامَ يُضْنِي الْعُؤْلًا¹
أبدى الشاعر رغبة في مفارقة الظلام الذي تكثر مثالبه فهو يكف العقول عن التفكير ويغرق صاحبه في الأوهام ثم يواصل الشاعر أنينه . معبرا عن القلق الوجودي الذي يعتري الإنسان و الذي يقذفه حيناً في ساحة الاستسلام والموت البطيء .

أَنَا أَخْشَى الضِّيَاءَ أَبْصِرُ فِيهَا
ذِكْرَاتِي تَبَدَّلَتْ تَبْدِيلًا .

1 - المصدر نفسه ص 145 .

أنا أَخْشَى النَّهَارَ يَكْشِفُ عَنِّي
 كُلَّ هَمٍّ أَرْوَدُهُ تَعْلِيلًا .
 أنا يا صَاحِبِي أَشِيحُ بِوَجْهِ
 أنا أَرَى عَهْدَنَا تَرْدَى قَتِيلًا .
 أنا يا صَاحِبِي أَدَافِعُ عَقْلِي
 أَنْ يَرُودَ الْيَقِينَ جَهْمًا ثَقِيلًا.

الظَّلَامُ الظَّلَامُ أَرْوَحُ لِلْقَلْبِ
 وَلَوْ كَانَ لَا يُرِيحُ الْعُقُولَا ¹
 يبدو هذا الإنسان مسلوب الإرادة كالخفاش يتلذذ بالظلماء مع قناعته بأنها
 تخدره وتبعده عن اليقين وتستمر القصيدة على هذا النسق جدال و صراع بين
 النور والظلماء فيبدو النور مشرقا مطمئنا وتبدو الظلمة محنطة قلقة . نقتات من
 الموت البطيء .
 وقد نجد الليل يعكس هذا تماما . ينم عن الحب والعشق وتتكشف فيه المعرفة
 وتفتح المغاليق
 ويصبح ليل الهدأة والفرح والتأمل.
 خَيْمَ اللَّيْلِ فِي خُشُوعٍ رَهِيْبٍ
 غَيْرَ لَمَعَ الرُّؤْيَى وَخَفَقَ الْقُلُوبُ .
 وَسَرَيْنَا نَرْتَادُ سِرَّ اللَّيَالِي
 وَهِيَ تُفْضِي بِسِرِّهَا الْمَرْهُوبِ .
 وَتُجْلِي لَنَا زَمَانًا زَمَانًا
 وَعَجِيبًا وَرَاءَ سِتْرِ عَجِيبِ .

1 - المصدر السابق ص ن .

وَمَتَاعًا مِنَ الْحَيَاةِ نَفِيسًا
 ضَمَنَّا أَلْفَ عَهْدٍ خَصِيبٍ.
 قَدْ رَشَقْنَا خُلَاصَةً مِنْهُ تُغْنِي
 عَنْ حَيَاةِ الْوَرَى وَعَيْشِ الشُّعُوبِ.
 وَسَرَى فِي النُّفُوسِ مَعْنَى جَدِيدٌ
 عَبَّرَتْ عَنْهُ بِالْغِنَاءِ الرَّتِيبِ.
 وَتَسَامَتْ أَرْوَاحُنَا فِي نَجَاءٍ
 وَتَهَادَّتْ قُلُوبُنَا فِي دَبِيبِ.
 تِلْكَ لَيَالَيْنَا وَهَذَا صَدَاهَا

إِيهِ لَيَالَيْنَا اخْلُدي لَا تَغِيبي¹

هذا الليل هو ليل منير تتكشف فيه المعرفة وتزال فيه الحجب وتسمو الروح.

فالجو صوفي

والمناخ موات للتخليق والكشف والتأمل . فالليل هنا بظلمته الحالكة، ظل عالما خارجيا لونه الشاعر بنوره الداخلي . فالنور والظلام إذن ليس إلا تعبير عن الإنسان وما يعتمل فيه من نوازع متصارعة ومعاناة ذاتية أو جماعية .

خاتمة

حاولت هذه الورقة أن تقارب الخطاب الصوفي القطبي، مقارنة فنية جمالية وخلصت إلى النتائج التالية :

_ لقد أدرك سيد قطب أن العقل قاصر عن اكتشاف الحقائق ، ولا مسلك لبلوغ الحقيقة إلا بولوج عالم الروح والاستمتاع بإشراقات الوجد والحب والخلد والسحر ، فكان موكب الصوفية وتحليقاتهم الروحية دليله إلى الشاطيء المجهول .

1- سيد قطب الديوان ص 88 .

_ أخفق شاعرنا في حبّه وطوّحت به رياح الشوق والحنين فطالعنا بحبّه الإلهي
وبتوجّهه إلى الله مصدر الجمال والجلال ، وهذا ديدن كل صوفي يطوّح به حبّه
العذري ليصل به إلى الحب الإلهي .

_ اصطرع بداخله النور والظلام ؛ صراع الخير والشر ، الموت والحياة ، العدل
والظلم .

والنور نبع صاف يستمدّ منه الصوفي رؤاه للإنجذاب نحو المطلق . في حين أن
الحياة بأدرانها وبما فيها من تشبث بالماديات . والزّخرف . هي الظلمة التي تكبّلنا
.

_ الغزل الصوفي وثنائية النور والظلام تجلّي واضح لسلوك صوفي ومسلك في
مدارج الكمال .

قائمة المراجع :

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم،

- 1_ أدونيس عي احمد سعيد : مقدّمة للشعر العربي دار العودة ، بيروت ط 2 1979،
- 2_ بوزيان أحمد :المنحى الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير
جامعة وهران 1997 .
- 3_ الجوزية بن القيم : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج3 دار الفكر سوريا
1991
- 4- خميستي ساعد : حول حقيقة التصوف ، مجلة الأمير عبد القادر الجزائري للعلوم الإنسانية جامعة
قسنطينة ، العدد 12. رجب 1423 سبتمبر 2002.
- 5_ الرازي شمس الدين : حدائق الحقائق تحقيق سعيد عبد الفتّاح . مكتبة الثقافة الدينية مصر ط1،
2002
- 6_ الرافعي مصطفى صادق :وحي القلم سلسلة الأنيس دار موقف للنشر الجزائر ج 3 دط .
- 7- السيّاب بدر شاكر : ديوان بدر شاكر السيّاب المجلد 1 دار العودة بيروت 2000 .
- 8_ ابن عجيبة الحسيني _ أحمد بن محمد : ابن عطاء الله السكندري إيقاظ الهمم في شرح الحكم
والفتوحات الالهية في شرح المباحث الأصلية ج2 مطبعة الجمالية بحارة الزّوم مصر ط 2 .
- 9_ الغزالي أبي حامد : إحياء علوم الدين تحقيق سيد عمران ج3 دار الحديث القاهرة دط 2004 .
- 10 _ ابن الفارض: الديوان دار بيروت للطباعة والنشر دط 1979 .

- 11 _ القشيري عبد الكريم بن هوزان : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق هاني الحاج ، المكتبة التوقيفية ، مصر دط ، دت ،
- 12 _ ملحق ثريا عبد الفتاح : القيم الروحية في الشعر العربي دار الكتاب اللبناني ط3 .
- 13 _ بن هاشم خناثة :
- _ الرؤيا والتشكيل في الشعر الصوفي رسالة ماجستير كلية الآداب جامعة تلمسان 1991 .
- _ شعرية النص الصوفي ، قراءة في مضارب التأويل رسالة دكتوراه جامعة تلمسان 2004 .
- 14 _ هلال محمد غنيمي : ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، دار العودة بيروت 1980 ،
- 15 _ اليافي عبد الكريم : دراسات فنية في الشعر العربي مطبعة دار الحياة 1972 .